الفصل العاشر

السودان

فى الوقت الذى كانت مصر تضطرم فيه بحوادث الثورة العرابية كان السودان يضطرم بثورة أخرى أضرمها الداعية الكبير محمد احمد (المهدى)

وكان المهدى يتتبع أدوار الحوادث فى مصر منذ بدايتها ، ويعلم أن الثورة العرابية ترمى إلى إخراج الأجانب من مصر ، فبدأ يفكر هو أيضاً فى إخراج الأجانب من السودان سواء كانوا مسلمين أو مسيحيين ، واصطبغت دعوته بلون دعوة دينية عتيدة ، وانتهز فرصة اشتغال الحكومة المصرية وانصراف جهودها إلى معالجة الحركة العرابية ، وفوز العرابيين عليها ، فاستطاع أن يبسط نفوذه وأن يوطده . وكانت القوات التى بعث بها حاكم السودان العنام لقمع الفتنة فى بدايتها ضعيفة مفككة فهزمها المهدى شر هزيمة ، وكان لانتصاره هذا أثر فعال فى انتشار الثورة .



محمد احمد المهدى

ولسنا نقصد هنا أن نتحدث عن الثورة السودانية ، فقد حفلت كتب التاريخ بأخبارها ولم يكن لنا اتصال شخصى بكل حوادثها حتى نثبتها فى مذكراتنا . ولكن ما علمناه من هذه الحوادث فى المعية يدعونا إلى اثباته كصورة لصداها الذى تردد بها

من ذلك انه عقب المرحلة الأولى من الثورة عين عبد القادر حلمى باشا حكمدارا (حاكما) للسودان مكان رؤوف باشا ، وكان رجلا قوياً حازماً فاتخذ التدابير الكافية لقمع الحركة وفاز على رجال المهدى فى عدة مواقع ، وكاد الأمر ينتهى بسحق الثورة المهدية ، لكن جماعة من الأجانب وشوا به عند الخديو والقوا فى روعه ان الحكمدار الجديد لا يبعد أن يستقل بالبلاد السودانية فى غفلة من الحكومة المصرية ، فانتهت هذه

الدسيسة باستدعاء هذا الرجل الجرىء الحازم من السودان ، وبعد رجوعه علمنا منه أن أهم أسباب قيام الأهالى ضد الحكومة هى :—

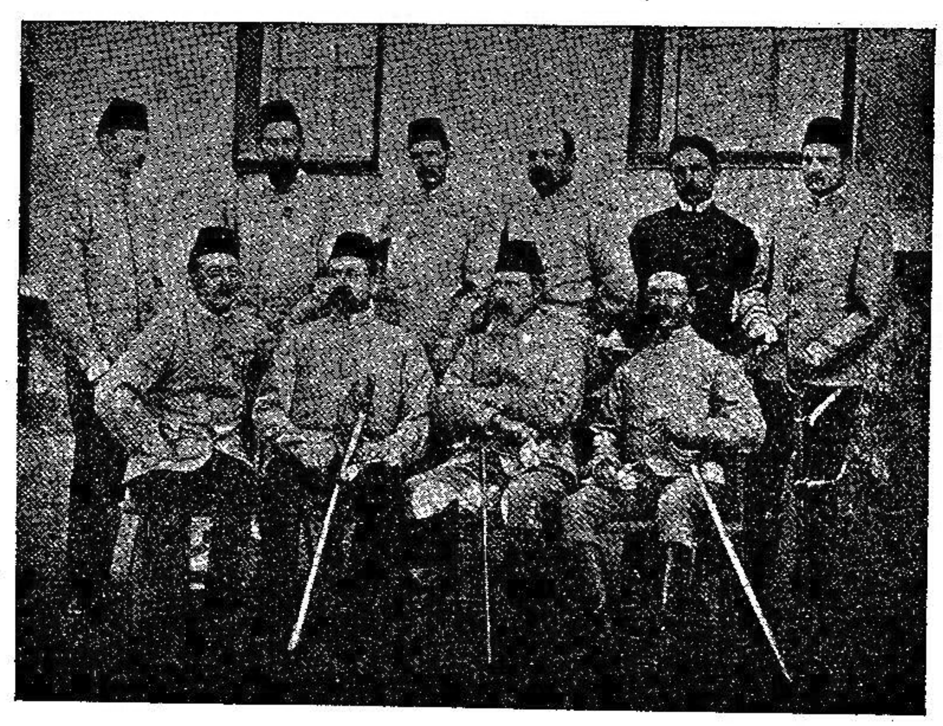
(١) حنق البقاره تجار الرقيق ومن أهل الثروة ومسموعى الكلمة بين القبائل ، على الحكومة من صرامتها فى تنفيذ أوامر منع تجارة الرقيق وقسوتها عليهم حتى نضب معينهم

(٢) سوء إدارة الحكام وغلظة المنفذين لأوامرهم من رجال الباشبوزق وأخذهم الرشوة

(٣) شهرة محمد احمد المهدى بالصلاح والتقوى وما كان يوهم الأهالى به من اتصاله بالنبى (صلعم) فى منامه ، وبأنه هو المهدى المنتظر . وقد قوى هذا الاعتقاد فى نفوسهم منذ انتصاراته المتعددة فى بدء ظهوره مع ضعف رجاله وقلة العدد الحربية عنده

واستفحل الأمر وزاد فى خطورته ان العرابيين لم يعملوا على حسمه بارسال النجدات السريعة ، كما طلب منهم الخديو كى لا تضعف قوتهم فى مصر كما يزعمون ، ومحافظة على حياتهم وسلطانهم

وهذا يدفعنى الى الاعتقاد بأن السبب المباشر فى ضياع هذا الأقليم المهم لحياة مصر هو إهمال عرابى ورفاقه تنفيذ ما أشار به الخديو .



هكس باشا وأركان حربه

فلما كان الاحتلال الانجليزى بعد انتهاء الثورة العرابية ، فكرت الحكومة فى إرسال

حملة مكونة من عشرة آلاف رجل إلى السودان بقيادة هكس باشا قوامها الجيش العرابى المنحل . وكان الاعتقاد سائداً فى نفوس هؤلاء الجنود بأن الحكومة انما ارسلتهم للتخلص منهم ، ففت ذلك فى عضدهم وكان من أهم أسباب فشلهم عند ما نشبت الحرب بينهم وبين الدراويش فى معركة حاسمة فى شيكان قريباً من الابيض عاصمة كردفان حيث خر فيها هكس باشا قتيلا ولم ينج أحد من جنوده قتل منهم من قتل وأسر الباقى . وكان ذلك فى يوم ٥ نوفمبر سنة ١٨٨٣

عندئذ أشار الانجليز على الحكومة المصرية باخلاء السودان فأبى شريف باشا أن يذعن لهذا الرأى ووقف موقفه المشرف المشهور مفضلا ترك الحكم على ترك السودان . وقد علمنا ان المحاورة بينه وبين الخديو كانت شديدة ، فهو لم يكن يريد التخلى أما الخديو فقد رجح فكرة الجلاء بناء على رغبة بدت من جانب الانجليز وتخويفه بشبح الثورة الآتية من الجنوب

فلما أن رأى شريف باشا تصميم الخديو على اخلاء السودان اجتمع هو والنظار وقرروا عدم الموافقة على ما عرضه بارنج من اخلائه كاوامر حكومته ، وفى الوقت نفسه وقعوا عريضة الاستقالة التى رفعت للخديو فى ٨ أبريل سنة ١٨٨٤ وهذا نصها :—

« ان الأسباب التى حملت النظار على الاستعفاء هى ان حكومة مصر ترى أنه من الممكن المحافظة على أملاكها السودانية التى بيدها الآن بواسطة ١٠ آلاف جندى ، وان التخلى عن السودان مضر بمصلحة مصر سياسياً وتجارياً ، وفى حال تخلى مصر عن السودان تقفل بيوت عديدة تجارية شهيرة بالقطر ، ولا ترى الحكومة لزوماً لترك الخرطوم وسواها الخاضعة والتى لم يحصل فيها هياج وحاميتها قادرة على حفظها وصونها ، وان حكومة مصر لا تقبل مطلقاً تلغراف اللورد جرانفل القائل بوجوب قبول كل نصيحة انجليزية بدون تردد ما دام جيش الاحتلال موجودا فى مصر وان كل ناظر لا يكون مشربه انجليزيا لا يلزم وجوده فى النظارة — فهذا مناقض لنص الدكريتو الخديوى الصادر فى ٢٧ أغسطس سنة ١٨٧٨ القائل بأن النظارة مسئولة أمام الخديو ليس إلا . وبناء عليه لا تستطيع النظارة الحالية قبول ما تطلبه انجلترا »

فقبلها الخديو تواً واستدعى رياض باشا وعرض عليه تأليف النظارة على أساس إخلاء السودان فاعتذر وكان مما قاله لسموه :—

(إننى أود لو كنت ناظراً فى نظارة شريف باشا حتى يكون لى شىء من فخر موقفه المشرف)

وعرضت النظارة فى ٩ ينايرسنة ١٨٨٤ على نوبار باشا فقبلها وتشكلت فى ١٠ منه على أساس فكرة الجلاء عن السودان ، ولم يبق بعد ذلك إلا التفكير فى طريقة الجلاء . وبعد أن تشاور الخديو فى هذا الأمر مع نوبار باشا والسير بارنج وعبد القادر باشا والجنرالين وود واستيفنسن قائد القوات الانجليزية فى مصر . فقر الرأى على انتداب جوردون باشا الذى عرض نفسه فى ٢ ديسمبر سنة ١٨٨٣ على الحكومة الانجليزية والذى أرسل خصيصاً لمصر لذلك فوصل فى ١٦ يناير سنة ١٨٨٤ وصدر الأمر



جوردون باشا

الخديوى فى ٢٤ منه بتعيينه حكمداراً عاماً للسودان ، وكلف القيام بعمل اللازم نحو إخلاء السودان كتعليمات الحكومة المصرية له . أما الحكومة الانجليزية فقد سلمت إليه خطاباً بالتعليمات اللازمة جاء فيه : —

« ان حكومة جلالة الملكة ترغب منك السفر بدون إمهال الى مصر كيما تقدم لها تقريراً عن الحالة العسكرية فى السودان وعن الوسائل التى يلزم اتخاذها لضمانة نفوس

الجاليات المصرية هنالك ونفوس الأوربيين فى الخرطوم، فعليك اذاً أن تتفحص وتقرر الينا أفضل الوسائل الممكن اتخاذها للتمكن من تخلية داخل السودان وذلك لأجل ضمانة أمن وادارة موانى البحر الأحمر التى هى تحت سيادة الحكومة المصرية . وفى الوقت نفسه يطلب منك أن تصرف اهتماماً خصوصياً فى شأن الوسائل الفعالة التى يجب أن تتخذ لردع الحركة الثورية وجلاء القوة المصرية بحيث لا ينجم عن ذلك ما يعزز تجارة الرقيق وأن تأخذ التعليمات اللازمة من وكيل الملكة وقنصلها الجنرال فى القاهرة الذى بواسطته تبعث تقريراتك وأنت تعتبر كوكيل ومفوض لاتمام أية مأمورية أخرى شاءت الحكومة المصرية إناطتها بك بواسطة السير افلن بارنج، وستصحب الكولونيل ستيوارت ليساعدك فى المأمورية المعهودة إليك . وفى حين وصولك الى مصر تتخابر مع السير افلن بارنج الذى يحكم بالاتفاق معك اذا كان من الواجب ذهابك تواً الى سواكن أو التوجه بنفسك أو إرسال الكولونيل ستيوارت الى الخرطوم عن طريق النيل »



سلاطين بك

كذلك استدعى الخديو الأمير عبد الشكور ابن الأمير عبد الرحمن سلطان دارفور فلما مثل بين يديه بسراى الاسماعيلية أعلمه سموه بعزمه على استرجاع مديرية دارفور إليه وتعيينه سلطاناً عليها تحت شروط من ضمنها حرية التجارة وإلغاء بيع الرقيق وعند وصوله الى دافور يعين سلاطين بك (نمساوى الأصل) رئيساً على جيوش دارفور وتبقى العساكر المصرية فى خدمته ما دامت الثورة موجودة ، وعند ما يشكل هو جيشه لا يحارب إلا عند وصول أوامر إليه من الخرطوم أو من القاهرة وأن يدفع تعديات المهدى عن بلاده ويتعهد هو وذريته بتبعيته لمصر. فشكر الأمير عبد الشكور هذا الاحسان

الجليل وقال انه لن ينسى أبداً المعروف الذى صادفه هو وعائلته من سموه .وقد وعد السلطان الجديد باخلاصه التام للخديو الذى تفضل عن طيب خاطر باسترجاع مديرية دارفور إليه . وكذلك أحسن عليه بالنيشان المجيدى من الدرجة الأولى مع رتبة الميرميران الرفيعة وألفين من الجنيهات ، وكلفه بالسفر مع جوردون الى الخرطوم وسلم إليهما منشورات لتوزع على القبائل ومنشورات لتوزع على أهالى دارفور للخضوع للأمير عبد الشكور لأنه ولى عليهم سلطاناً

وفى يوم ٢٦ ينايرسنة ١٨٨٤ سافر جوردون والامير عبد الشكور على قطار خاص. ولقد سافر مع الأمير نحو أربعين امرأة من اتباعه ، فوصل إلى كورسكو حيث بقى فيها (١) وواصل جوردون السفر إلى الخرطوم فوصلها فى يوم ١٨ فبراير سنة ١٨٨٤ وبمجرد وصوله ـ ولما ان كان يعرف ان الزبير رحمت باشا من عظماء دارفور والمقيم بمصر له نفوذ عظيم في السودان ـ طلب منه أن يرسل تلغرافاً إلى أعيان السودان ينصحهم فيه بأن يظهروا الطاعة وينضموا لجوردون باشا فقام بارسال هذا التلغراف فى ٨ مارس سنة ١٨٨٤

بعد ذلك فكر فى استمالة الأهالى اليه بأن أصدر منشوراً جاء فيه أنه أمر بتخفيض الضرائب إلى النصف وأباح تجارة الرقيق، كما أمر باحراق دفاتر الحكومة الموجود بها المتأخر من الضرائب على الأهلين، وكما فكر أيضا فى استمالة المهدى اليه فأرسل اليه رسولا يحمل اليه هدية من الملابس المزركشة بالقصب والمموهة بالذهب وينقل اليه كتابا سلميا يسميه فيه سلطانا على كردفان مبيحا له الحرية التامة والاستقلال فى العمل. فتوجه الرسول ولم يرد اليه الرد من المهدى إلا فى يوم ١٥ مارس حيث قدم فى اليوم المذكور ثلاثة دراويش من قبل المهدى فدخلوا الخرطوم وطلبوا مقابلة جوردون ولكن الحجاب سألوهم أن يدخلوا عليه بدون سيوف فأبوا فأذن لهم ولما مثلوا بحضرته خاطبوه بقولهم ان خطابك وصل إلى المهدى وأمر بكتابة هذا الخطاب ردا عليه فننقله اليك وسلموه اليه ونصه : —

(١) بقى الأمير عبد الشكور فى كورسكو ولم يسافر الى دارفور وفى ٢٧ فبراير سنة ١٨٨٤ كتب للعاصمة يطلب مالا ويستدعى باقى النساء من أتباعه اللاتى تركهن بمصر وقد قال انه ان لم ينل ما يطلبه فانه لا يمكنه الاستمرار فى السير والذهاب لمحل مأموريته . وقد أجابت الحكومة طلبه فسافر على الفور حتى وصل دنقلا فبقى فيها حتى يوم ٣١ مارس سنة ١٨٨٥ إذ بارحها عائداً مع عائلته لمصر نظراً لعدم تمكنه من توليته سلطنة دارفور لوجود وال من قبل المهدى

« الى جوردون . أخذت خطابك الذى تسمينى فيه سلطانا على كردفان فتولانى الذهول من ذلك وداخلنى مزيد الاستغراب المتولد عن زعمك أنك تعطينى بلادا هى لى وأنا لها . واعلم وفقك الله أن رسالتى المهدوية لا تستوقفنى فى كردفان فقط بل تقضى على بأن أذهب إلى الخرطوم وأحتلها ومنها أسير إلى الأصقاع البعيدة والأنحاء الشاسعة . وأما الهدية المزركشة التى بعثتها الى فهى اليك راجعة بل هى بك أولى وأليق ، فان دعوتى تأبى اتشاح مثل هذه الملبوسات . هذا هو شرح حالتى ، وأما أنت فاذا رغبت الحياة فاتبعنى لتنجو بنفسك واليك دلقا (لبس الدراويش) فالبسه واسلك مسلك الدراويش فتنال رضاى »

فلما تلا جوردون الخطاب أمر بنقض كتابه الأول أى بعزل المهدى من سلطنة كردفان وبأن يسلموا الدلق إلى الدراويش ليرجعوه الى سيدهم



الزبير رحمت باشا

ولما رأى أن لا فائدة من استمالة المهدى بواسطة وعـوده وهداياه ومنحه ، ووجد أن الحالة فى ضنك شديد من شدة الحصار على البلد كما أن الثورة امتدت حتى شندى ، كما أخبر الحكومة فى ١٧ مارس بذلك ، فكر فى أن ينتدب الزبير رحمت باشا ليكون وكيلا له نظراً لأن هذا الأخير من رجال السودان العظماء وله كلمة مسموعة واخوان وأقارب فأرسل اليه تلغرافا هذا نصه : —

« سعادة افندم الزبير باشا بمصر — نحن عينا سعادتكم وكيلا لحكمدارية عموم السودان فيكون معلوم سعادتكم ذلك وعند حضوركم لبربر تخابرونا بحضوركم وتسعوا لما فيه الاصلاح وبحضور سعادتكم تنظروا فيما اذا كان يمكن ارسال اثنين وابورات لحضور سعادتكم ويجرى ارسالهم وسعادتكم تعملوا ترتيب فى كيفية حضوركم للخرطوم بالوابورين المذكورين ، والاثنين الآخرين الموجودين ببربر بواسطة أعمال دراوى من الحديد لوقاية ما بهم من العساكر من ضرب الرصاص وتحضروا ما هو لازم معكم

من الجعليين وتعملوا مقدما استكشافات بالطريق بدون مخاطرة لسعادتكم افندم »

فرد عليه الزبير باشا فى ١٦ ابريل سنة ١٨٨٤ بالتلغراف التالى : —

« الى جوردون باشا بالخرطوم — قد تشرفنا بورود تلغراف سعادتكم المتضمن تعييننا من طرف سعادتكم وكيلا لحكمدارية عموم السودان ونعرف سعادتكم أننا فى غاية التشكر ونهاية الممنونية من حسن التفات سعادتكم وجميل توجهاتكم فى سائر الأحوال ويسوءنى أن أعرف جنابكم مع غاية الأسف بأن الحالة الحاضرة لا تسعف الآن بالمرغوب وأرجو الله تعالى أن يديم سلامتكم ويتمم نجاحكم لما فيه الخير والصلاح العمومى افندم »

ومع كل هذا فلم يبخل الزبير باشا على جوردون بالمساعدة بناء على أوامر الحضرة الخديوية ، فقد أرسل فى ٢١ مايو بواسطة فضل الله افندى ومحمد ابو جبالى ومحمد ولد رحمة خطابين إلى عشائر السودانيين والقبائل المحاصرة للخرطوم يرجوهم فيهما ادخال هؤلاء الثلاثة لمقابلة جوردون وطلب منهم أن يطلقوا له الحرية ويرافقونه إلى كورسكو فى حالة ما إذا أراد المهاجرة . ولكن كل هذا لم يكن ليغنى فتيلا (١) فقد حوصر جوردون فى الخرطوم مدة كبيرة نفذت فيها النقود فأصدر أوراقاً مالية على النسق الآتى : —

خمسة غروش ميرى
٢٤١٥٠
هذا المبلغ مقبول يجرى دفعه من خزينة الخرطوم أو مصر بعد مضى ستة أشهر من تاريخه ؟ ٢٥ ابريل سنة ١٨٨٤ جوردون

وأصدر أمراً بمحاكمة كل من يمتنع عن المعاملة بهذه الأوراق . كما أنه لما رأى ما تظهره حامية الخرطوم من الشجاعة فى الدفاع عنها أوجد نيشاناً لتوزيعه عليهم تشجيعاً لهم

وأرسل احدها إلى الخديو اسماعيل فى نابولى بواسطة قنصل إيطاليا الجنرال بمصر مع خطاب ترجمته كالآتى (٢) : —

---

(١) أنظر القبض على الزبير باشا وابعاده إلي جبل طارق في صفحة ٢٧٦

(٢) حصلنا على ترجمة هذا الخطاب من قنصل جنرال إيطاليا شخصيا

« إلى سمو اسماعيل باشا خديو مصر سابقاً حفظه الله — من ضمن الانعامات العديدة التى غمرتنى بها مدة حكمكم السعيد قد أحسنت على بجملة نياشين لم أزل افتخر بها وصيرتنى أسير شكرك . هذا ولما أن تعينت حكمداراً للسودان وذهبت للخرطوم سليما بحمد الله لم يمض إلا شهران حتى انقطعت الصلات بينى وبين مصر، وأقامت العربان الحصار على المدينة . فى مدة هذا الحصار ظهر مراراً من العساكر والمستخدمين الملكيين وأعيان البلد جملة أعمال خطيرة وشجاعة غريبة يستحقان مزيد الاعتبار، وبالاخص عند ما كانوا يحتملون الصعوبات التى تصادفهم ولهذا أردت ان أكافئهم على سلوكهم الحسن وصداقتهم الخالصة فأمرت باصطناع نياشين ووزعتها عليهم وسبق ارسلت لكم عينة منها على وابور (عباس) ولكن بما انى أخشى من عدم وصوله لكم أرسلت اليوم واحداً آخر ارجو منكم قبوله . وغاية رجائى أن تقبلوه منى من نوع التذكار افندم — من عبدكم المخلص الشاكر لافضالكم — جوردون »

بقى جوردون محاصراً بالخرطوم فأرسلت الحكومة الانجليزية الجنرالين جراهام وبيكر لمساعدته وانقاذ حاميات السودان الشرقى ، فذهبا ولم يفلحا بعد أن دوختهما الدراويش

غير أن المستر هويت النائب عن الحكومة الانجليزية أمر فى ٧ مارس سنة ١٨٨٤ بالقيام لعدْوه عاصمة الحبشة هو والكولونيل ماسون بك النائب عن الخديو لعقد معاهدة مع ملكها حتى يمكن اجلاء العساكر من السودان بمرورهم بالأراضى الحبشية ولقد حررت هذه المعاهدة فى ٣ يونيه سنة ١٨٨٤ هذا نصها :—

« المادة الأولى: من تاريخ التوقيع على هذه المعاهدة يباح للحبشة حرية نقل البضائع ومن ضمنها الأسلحة والذخائر عن طريق مصوع تحت حماية انجلترا

المادة الثانية : فى أول سبتمبر سنة ٨٤ الموافق ٨ مسكرام سنة ١٨٧٧ تعاد بلاد بوغوس إلى ملك الحبشة ومتى انجلت جنود الحضرة الخديوية عن كسلة وامديب وسنهيت فحينئذ تسلم البنايات الموجودة فى بوغوس خاصة الحضرة الخديوية مع المؤونات والذخائر التى تبقى فيها إلى ملك الحبشة فتصير من أملاكه

المادة الثالثة : يتعهد ملك الحبشة بتسهيل انجلاء جنود الحضرة الخديوية عن كسلة وامديب وسنهيت بالمرور بأراضى الحبشة (١)

---

(١) قد نفذ النجاشى ما وعد به كما أن الحكومة المصرية بذلت جهدها فى إخلاء بربرة وزيلع وهرر وعهدت فى ٥ مارس سنة ١٨٨٧ إلى الرحالة الانجليزى الشهير استانلى فى انقاذ امين باشا) الالمانى الأصل) مدير بحر الغزال ومن معه من الجنود وقد نجح في ذلك أما دنقلة وما جاورها فقد تمكنت الحكومة أيضاً من إجلائها

المادة الرابعة : يتعهد سمو الخديو بأداء التسهيلات التى يطلبها حضرة ملك الحبشة فى تعيين رئيس أساقفة

المادة الخامسة : يتعهد كل من سمو الخديو وملك الحبشة بتسليم أى مجرم فار تخلصاً من العقاب من أملاك الواحد إلى أملاك الآخر

المادة السادسة : يقبل ملك الحبشة رفع كل خلاف يقع بينه وبين الحضرة الخديوية عقيب التوقيع على هذه المعاهدة إلى حكومة جلالة الملكة

المادة السابعة : يقتضى التصديق على هذه المعاهدة من الحكومة الانجليزية والحضرة الخديوية وارسال ذلك الى عدوه بأسرع ما يمكن »

أما المهدى فاستمرت انتصاراته واتسع نفوذه حتى أصبحت الحالة فى السودان على أسوأ ما يكون ، وحتى أصبح يخشى على جميع الموجودين هناك من الرجال العسكريين عامة ، وجوردون باشا والكولونيل ستيوارت خاصة . فانتدبت حكومة جلالة الملكة الجنرال اللورد ولسلى (بطل موقعة التل الكبير) للقيام لوضع حد لهذه المشاكل واجلاء الجنود المصرية والانجليزية عن السودان وزودته بالتعليمات اللازمة لذلك

وصل ولسلى العاصمة فى ٢٢ سبتمبر سنة ١٨٨٤ وتوجه لسراى عابدين وتشرف بزيارة سمو الخديو ورد سموه له الزيارة بقصر النزهة الذى أعد لنزوله . وعند عودة سموه من هذه الزيارة علمنا أن أوامر انجلترا للورد ولسلى هى: — (١) انقاذ جوردون وستيوارت من الخرطوم (٢) تقليل الأعمال العسكرية وحصرها بقدر الطاقة (٣) إزالة الحكم المصرى من السودان (٤) اجلاء العساكر المصرية والموظفين الملكيين وعائلاتهم (٥) رغبة الحكومة الانجليزية فى ايجاد حكومة مستقلة استقلالا تاما فى ادارتها الداخلية بالخرطوم عن حكومة مصر (٦) تدفع الحكومة المصرية إعانة لأى شيخ أو جملة مشايخ يثبت اقتدارهم على استتباب النظام على وادى النيل من وادى حلفا إلى الخرطوم بالشروط الآتية : — « ا » مسالمة مصر وصد من يشن الغارة على الأراضى المصرية . « ب » بذل الجهد فى رواج التجارة مع مصر . « ج » بذل غاية الجهد فى منع تجارة الرقيق (٧) فوض اليه عقد وابرام أى اتفاقات لا تخرج عن هذه التعليمات .

وقام ، بعد زيارات أخرى تبودلت بينه وبين رؤساء الحكومة مزوداً بالعساكر الانجليزية والمال ، إلى السودان . ومساعدة له فى مهمته أرسل الخديو فى ٦ نوفمبر سنة ١٨٨٤ أمراً كريماً إلى جميع المديرين والمشايخ والأعيان فى جميع البلاد السودانية

يامرهم فيه بتعضيد الجنرال ولسلى فى جميع اجراءاته الحربية التى سيباشرها قريباً ، وأن يطيعوه فى سائر الأمور .

وصل الجنرال ولسلى وجيشه إلى كورتى فى ١٥ ديسمبر سنة ١٨٨٤ واستمر فى محاربة جيش المهدى على أمل الوصول إلى الخرطوم لفك الحصار عنها

وعند ما علم جوردون بوصول ولسلى مع تجريدة لانقاذه ووجوده قريباً من الخرطوم ، أرسل إليه وابورين وعليهما الكولونيل ستيوارت وخشم الموسى بك (رئيس الشايقية) لمساعدة الحملة على الوصول على جناح السرعة . فأمر ولسلى السير تشارلس ولسن ومعه جزء من الجنود الانجليزية بالتقدم نحو الخرطوم بالوابورين . وفى اثناء سيرهم كان العدو يطلق عليهم النيران من الشاطىء إلى أن وصلوا إلى الخرطوم ولم تنقطع عنهم النيران ، فاستدلوا بذلك على سقوطها سيما وأنهم رأوا أن سراى جوردون مهدمة تماماً ولا أثر للأعلام المصرية أو الانجليزية على الخرطوم . وعلم ولسن أن جوردون قد قتل فرجع على جناح السرعة إلى كورتى وأخبر الجنرال ولسلى بذلك . وكان سقوط الخرطوم وقتل جوردون فى يوم واحد وهو يوم ٢٦ يناير سنة ١٨٨٥ بخيانة فرج باشا الذى فتح للمهديين الطريق للدخول إليها

فلما أن علم ولسلى بهذا الخبر أرسل فى الحال إلى الحكومة المصرية ، ولما علم الخديو بذلك تأثر جداً وأرسل خطاب تعزية إلى زوجة جوردون فى ٢٤ فبراير سنة ١٨٨٥ . كما أخبر ولسلى حكومته أيضاً بذلك بواسطة بارنج فوردت اليه الأوامر بالانتظار حتى تصله تعليمات أخرى ، لأن حكومة انجلترا ، بعد زوال المبرر لحملتها وهو إنقاذ جوردون ، ترددت بين الاقدام والاحجام . ولما كان البرنس حسن باشا شقيق الخديو قد أظهر لبارنج فى ٢٨ ديسمبر سنة ١٨٨٤ استعداده للذهاب إلى السودان وإخضاع الثائرين خابر بارنج بذلك حكومته ، وفى اليوم التالى وردت إليه التعليمات بأخذ رأى ولسلى فى الموضوع ، فأبلغ ولسلى بذلك بناء على أوامر حكومته ، ولكن لم يتم أمر الى أن سقطت الخرطوم وتغير الموقف ، فحصلت مخابرات بين الحكومتين المصرية والانجليزية بخصوص تعيين البرنس حسن باشا معتمداً سامياً فى السودان فاستدعاه الخديو فى يوم ١٢ فبراير سنة ١٨٨٥ وأبلغه رغبته فى تعيينه فقبل هذا التعيين على أن يكون من قبل الخديو بصفته والياً للسودان ، وأن يكون مستقلا فى الادارة ، وتكون كل مخابراته مع مصر مباشرة ، وأن تطلق له الحرية التامة فى انتخاب وتعيين من يطلبهم

فى خدمته ، وأن يصرح له بجمع قوة قدرها ثلاثة آلاف رجل من مصريين وشراكسة وأتراك وألبانيين، وأن لا يكون لديه أحد من الانجليز . واستمرت المخابرات بينه وبين الخديو ونوبار وبارنج الذى أبرق إلى حكومته بذلك فرفضت الحكومة طلبات البرنس وقالت : — ليس ثمت من ضرورة لجمع قوة . فأجاب بأنه كيف يتيسر له تنفيذ كل ما يراه يعود على مأموريته بالنجاح، فأجيب بأن العساكر المصرية والانجليزية الموجودة بدنقلا تكفى للقيام بما يطلبه . وأخيراً عدل عن مطالبه وقبل العمل بلا قيد ولا شرط فأبلغ هذا القبول إلى ولسلى فجاء الرد فى ١٦ فبراير سنة ١٨٨٥ بموافقته بشرط أن يكون البرنس معتمداً سامياً من قبل الخديو فيرافق الحملة الانجليزية فى سيرها ويكون ذا سلطة على جميع المديرين وغيرهم من حكام السودان المدنيين . ولكنه يلزم قبل قبوله هذه المهمة أن يشترط عليه الانصياع إلى مطالبنا بدون شرط ، وإذا قبل فليأت إلى كورتى فأبرق بارنج بذلك إلى حكومته فرد عليه جرانفل بأنه لا يرى مانعاً من إرساله إلى دنقلا على شرط أن لا يكون فى مأموريته شىء يدعو إلى إعادة السيادة المصرية على السودان أو إكراه السودانيين على قبولهم أن يكون حسن باشا حكمداراً عليهم

وبعد أن تمت مراسيم التعيين والقبول أخطرت انجلترا حكومة الاستانة بذلك كما أخطر حسن باشا الباب العالى بهذا التعيين أيضاً

وفى ١٩ فبراير سنة ١٨٨٥ أولم بارنج وليمة فاخرة للبرنس حسن باشا حضرها نوبار باشا وعبد القادر باشا وخيرى باشا ودومرتينو باشا والجنرال ستيفنسن والمستر فنسان وغيرهم من علية القوم

وفى ٢ مارس بارح البرنس حسن محطة بولاق الدكرور الى أسيوط على القطار الخديوى الخاص، ورافقه حتى أسيوط ذو الفقار باشا مندوباً من قبل الخديو. وكان فى وداعه بالمحطة السير بارنج ودومرتينو قنصل جنرال إيطاليا والجنرال استيفنسن وعدد من كبار مصر وأعيانها يتقدمهم شريف باشا وكبار الجاليات الأجنبية . وكان بالمحطة فرقتان من العساكر المصرية والانجليزية بموسيقاتهما، وعند وصول البرنس الى المحطة صدحت الموسيقى المصرية بالسلام الخديوى وبعدها صدحت الموسيقى الانجليزية. وقد كان لوداعه بالمحطة أثر عظيم فى النفوس . وصدرت الأوامر الى جميع المديريات بالاحتفال بالبرنس عند مروره بها ، وعند وصوله الى أسيوط نزل باليخت الخديوى (زينة البحرين) وبارحها فى ٤ مارس سنة ١٨٨٥ الى أسوان حيث سافر منها على وابور (السعيدية) الى كورسكو ووادى حلفا حيث وصلها فى ٣١ مارس ولم يتم

سفره الى دنقله ، اذ وردت — قبل وصوله الى وادى حلفا بيوم واحد — برقية من لندرة بالايعاز الى البرنس حسن بالرجوع ، كما صدرت الأوامر الى اللورد ولسلى بالرجوع أيضاً الى مصر

أما السبب فى إحجام انجلترا بعد عزمها على فتح السودان فسنورده عند الكلام حوادث سنة ١٨٩٩

انتظر البرنس وصول الجنرال ولسلى الى وادى حلفا ليسافرا معاً الى مصر

فبارح ولسلى دنقله فى يوم ٣٠ مارس ووصل أسوان فى ٧ أبريل سنة١٨٨٥ قبل البرنس حسن الذى كان قد رحل قبله ووصل محطة بولاق الدكرور فى يوم ١١ أبريل مساء. وقد استقبله السير بارنج والجنرال استيفنسن وذو الفقار باشا من قبل الخديو. وفى يوم ١٢ أبريل تشرف بمقابلة الخديو بسراى عابدين ، ورد سموه له الزيارة وبعدها غادر ولسلى القطر المصرى مشيعاً بالاعزاز والاكرام

أما البرنس حسن فقد بارح وادى حلفا فى يوم ٦ أبريل الى العاصمة فوصل محطة بولاق الدكرور فى صباح يوم ١٨ منه فى قطار خاص ، وكان فى انتظاره بالمحطة ذوالفقار باشا من قبل الخديو واسماعيل كامل باشا سر ياور الخديو وكثيرون من الوجهاء والأمراء. وقد توجه تواً الى سراى عابدين فقابل سموه ثم ذهب بعدها الى سراى الجزيرة حيث زاره النظار والأعيان مهنئين بسلامة الوصول

القبض على الزبير باشا وابعاده عن مصر . فى أثناء وجود ولسلى فى دنقله ضبط أربعة خطابات قيل إنها من الزبير باشا رحمت أرسلها لأحد المشايخ فى أسوان لتوصيلها للمهدى. فبعث ولسلى تلغرافا الى بارنج بالقبض على الزبير باشا فعرض هذا الأمر على الخديو ونوبار باشا فلم يوافقا . ورغماً عن ذلك فقد قبض عليه بأمر بارنج بواسطة عساكر انجليزية فى منزل السنوسى بالاسكندرية كما قبض على ولديه وأرسل الجميع الى جبل طارق فى ١٥ مارس سنة ١٨٨٥

احتلال ايطاليا لمصوع . لما فشلت تجريدة ولسلى وصارت السودان فى يد المهدى انتهزت إيطاليا هذه الفرصة واحتلت مصوع فى ٥ فبراير سنة ١٨٨٥ برضاء انجلترا، نظير موافقتها على سياستها فى مصر، وأعلنت أن احتلالها هذا سيكون مؤقتا وللمحافظة على سيادة الدولة العثمانية فيها. فاحتج الخديو على الحكومة الايطالية فى ٩ فبراير سنة ١٨٨٥ وأرسل بذلك للباب العالى الذى قام بالاحتجاج لدى الدول فى ١٠ منه ، كما أرسل فى هذا

التاريخ يشكر سمو الخديو على احتجاجه . وفى ١١ فبراير أرسلت الدولة العلية تخبر الخديو أنها ستتخذ جميع الاحتياطات اللازمة صونا لحقوقه . ولما طلب سموه تعليمات فى ١٧ منه من الباب العالى عما يتخذ نحو احتلال إيطاليا لمصوع ، صدر الأمر بعدم جلاء الحامية المصرية عنها

فبقيت الحامية المصرية فى نفس المدينة رافعة العلم المصرى . أما الايطاليون فاحتلوا ضواحيها رافعين عليها علمهم[١]

وفى ٢٢ يونيه سنة ١٨٨٥ توفى محمد احمد المهدى وخلفه التعايشى[٢]

---

(١) انتهى الأمر فيما بعد على جلاء الحامية المصرية عن مصوع وتركها لايطاليا

(٢) كان التعايشى أطماع كثيرة ، منها فتح مصر، فأرسل اليها ولد النجومى (عبد الرحمن) بجيش جرار واقتحم الحدود المصرية حتى وصل إلى طوشكى حيث هزمته الجنود المصرية شر هزيمة فى ٣ أغسطس سنة ١٨٨٩ وطاردت جيوشه بعد قتله إلى داخل السودان